نظرة وراء الأفق

قصة بقلم عبد العزيز مصطفى

(من وحي معركة فيتنام)

مرة ثانية خلال هـــذا اليوم الحار ينتابه الغضب ، ولم يكـن مندفعا ، فآثر الصمت والتفكير ، لكن بحثـــه عن الرضا ذهب بغير جدوى ، وبجانب الراديو جلس مسندا ظهره الى الوراء في استرخـاء يحتسي القهوة وصاح كأنه يطرد عبئا ثقيلا جاثما على صدره :

ـ مزيدا من القهوة يا آماه ..

اقبلت آمه من الحجرة المجاورة ، فصبت القهوة في صمت ، وعادت الى عملها في الداخل . لم تكن عجوزا ، كان فيها عصبيـــة الشباب وتفاؤله . نظرتها حادة صافية . لا اثر للتجاعيد . كل مـا يجعلها آما لشاب كهذا الجالس ورآء النافذة هو بعض الشعر الابيض الذي يضيء شعرها الاسود الفاحم .

كان الجبل على مقربة من البيت ، قائما كالسر الغامض كالزمـن الصامت . قمة شامخة قاتمة اللون تكاد هامتها تعانق السحب الصغيرة المتناثرة في البحار الزرقاء في الفضاء الساكن . وعندما اقترب الغروب لفت الوادي الممتد أسفل الجبل وحواليه غلالة رقيقة من الشعـــاع الواهن ، والصمت الحزين . كان بيتا في قمة الوادي عند حد مـن حـدود الجبل الناتئة كأنها تنشب اظافرها فـي بطن الارض ، وانبعث صوت الراديو يذيع انباء الحرب الدائرة بين القوات الاميركية والشعب. اختلط صوات الراديو بصياح الدجاج في الحظيرة القريبة مـن حجرته. اغلق « كوانج » الراديو في عصبية وشت بقوته البادية في عضلاتـــه البارزة ، وأقبلت أمه باسمة كأنها تخفف من قلق يطاردها . وتساءلت :

ـ هل من جديد عن الحرب ؟

نظر كوانج الى الحجرة المؤثثة بأثاث قاتم اللون وان أضفى عليهـا مهابة وسحرا ، وأجاب باستهانة :

ـ لا جديد ..

ـ اراك غاضبا ..

وبحركة سريعة نهض فاضاء المصباح والتفت الى آمه بعينيـــن نفاذتين وقال :

ـ الى متى الصبر ؟ عملت في المزرعة كما شئت لي أن أعمـل ، ومسألة « كوشان » لا تزال معلقة ..

تأملته المرآة وكان شعرها المقصوص يضفي عليها حنان الامومة ، ونظرتها الهادئة تكشف عن أغوارها الساذجة :

ـ ليس أحب الي من زواجكما ..

ـ أتظنين يا أماه انها غير جادة من وراء ذلك التسويف ؟

ابتسمت الام معاتبة وقالت :

ـ أنسيت ان أباها مات منذ عام ؟

ـ دعيني من حديث الموت والاموات ..

قفز الى الخلاء وثبت عينيه على الافق . كانت بشرته السمـــراء مفعمة بالامل رغم صراخ الكون الصامت ، وعيناه تتجولان في الفضـاء المحيط به . لا شيء سوى النجوم المتلألئة ، ورائحة الارض الذكيـــة تحيل الهواء الى نسيم كشذا أعشابها ومروجها . ثمة شيء قـــريب يوسوس له في باطنه ، غريب آلا ينشغل بالحرب ، لكن هل يحب أم يحارب ؟ قلت لها دعيني من الموت وحديثه ، ولم ألبث أن ندمـت . من يدري متى تنتهي الحرب ؟ وهذا البيت ينتفض كل ليلة تحت وابـل الضرب الاحمق وأنت سادر في أوهامك .

قطع الطريق الى قرية « مينام » البادية كأنها مصباح معلـق يضطرب شعاعه ، وأحيانا يضيع في الظلمة المنتشرة لولا أعين النجوم الساهرة . وعند أقصى الوادي انضم « كوانج » الى صف من البيـوت الهائمة في الظلام . خطواته ثابتة رغم مشاعره المضطربة والهـواجس التي تغزوه كأنها رسائل الظلام الى قلبه الخافق . عند ملتقى المزرعـة بالقرية كان بيت « العم شون » حيث تقيم « كوشان » . طرق الباب فانفرج أزيزه عن مصباح أزرق . وبدت « كوشان » نحيلة . زادهـــا الضوء الواهن سحرا يذكره بأيام الهناء في الوادي ، ودعة السكـون في ليالي الصيف الباسمة مع المروج السابحة في صحن الفضـاء . اهتاجت مشاعره فأمسك بيدها وقال :

ـ أين « العم شون » ؟

ـ ذهب الى المنظمة وسيعود عما قريب .

تأملها مليا . هانان العينان السوداوان والبشرة الخمريـــة والصوت المنغم كأحلام المستقبل . خرجا الى الشرفة وقال كأنه يقطـع صمت المكان :

ـ يكاد النهر ان يتكلم ، أتسمعين صوت النهر ؟

تنهدت ورمقت الجبل بنظرة سريعة ، وبنظرة هاربة انضمـت الى نظرته الجامدة كأنها تختزن شواظ اللهب . وذابت العيون وافتر ثغرها عن ابتسامة كأنها اغراء بالحديث في رفقة الظلام حتى النشوة . وقـــالت :

ـ اختلطت الاصوات . ونهر « مينام » صامت في صراخه المكتوم وسماء العام الماضي غير سماء هذا العام . اتـــذكر الربيع قبـل إن يموت أبيَ ؟

ضغط على ذراعها وسرعان ما صارا شبحين في ظلمة داكنة تبللها الدموع وهمسات يدور حولها الصمت كالاطار فيه نغم وفيه تقديس .

ـ كانت رحـــلة الامس بديعة .. السمك والكرة والضحـــك حتى الصبـاح .

ـ لولا الحرب .

العبوس اثناء الابتسام اصبح عادة في الارض الثائرة ، وصوتهـا يضيع في صخب ينبعث من اعماقه ، والحلم يكاد يتبدد تحت وابـــل الضرب . كان الماضي اغماء وحيرة كالزلزال . ما بال السماء متـاهات لا أول لها ولا آخر ؟ اليوم سيناضل ليسحق مرارة تربض في اعمـــاقه ويصل مذاقها الى لسانه . الى متى يتململ النهر ؟ سننتصر وستبتسم اشجار البامبو في المزارع كذلك الربيع البعيد .

بدا « كوانج » في قميصه البني وسرواله الازرق كرجل قادم من سفـر . نفرت عـروق ذراعيه القويتين ، ولمعت ساعته فنافست ضوء النجوم ، بينما ارتدت « كوشان » قميصا ابيض وسروالا اسود وعقصت شعرها ، وأكسبتها نحافتها اغراء أشعلته حبات عرق تستقر على جبينها وعنقها . انتشى كوانج من عبيرها المختلط برائحة الشجيرات الندية الممتدة على جوانب البيت . في هذه اللحظة انفجر قصف قنـابل عادية كالرعد الجامح ، وانتشر في الجو كله ضجيج خانق مجنون ، وغبـار

ملوث بالنيران ، بدا في احمراره كالجحيم قبحا وبشاعة . واهتـــزت الارض كأنها ترتفع بكائناتها ، وانطلقت اصوات الانفجارات تغطي اعشاب الوادي وان بدت الشجيرات مترنحة في سكونها الابدي . وفي الضـوء القادم المتقطع ظهر الجبل مشتعل الهامة . ولوث اللهب الافق بألسنة من النار والغبار ، وظل الضرب يلطم الظلام بجناحين احمرين ، ينقض ثم يسري كومض شعاع فلكي مالكا قبة الفضاء . ظل الضرب حتى لمعت فجوة صغيرة في الافق ، وما لبثت الشمس ان مسحـــت برفق ذروة الجبل ، وزروع الوادي ، على حين سكت الانفجـــار وتوارت الظلمة . كان أمس كئيبا حقا . كذلك قال « كوانج » لنفسه . نظر حواليـــه . كوشان وآمه والعم شون ، يسيرون الى منظمة التحرير وتفـــوص اقدامهم في الرمال الساخنة وراء الجبل والقرية حيث تمتد الصحراء. مسح على جبينه براحته الغليظة واشعل سيجارة ، وصاح العم شـون كأنه يحدثه في رحلة صيد :

ـ ما بالك ذاهلا ؟

أذاهل هو ام صمت الخلاء رانت رهبته على المجموعة الضربة فـي بطن الصحراء غير مبالية بسطوة الشمس وامتداد المسافة بلا حدود ؟ فجأة ندت عن آمه صرخة مزقت كل ذرة في وعيه ، وانطلق علـى الاثر ذئب صغير أغبر في لون الرماد . مال كوانج على امه يسند رأسهـا بينما نزع العم شون مسدسه وراح يطلق منه رصاصا متتابعا عـــلى الذئب . لكن الذئب كان قد اختفى ودماء آلام تسيل مـــن كعبها في بطء . نهش المسعور كعب المرأة واختفى . شدت كوشان منديلا ابيض على الجرح ، ريثما يصلون الى القيادة . ويبدو آن الجرح كان سطحيا فقد تضاءلت آنات المرأة ، وان ظلت تضغط على شفتها السفلـــى ، وتستند على كوانج وتزفر زفرات موافقة لاضطراب خطوها كلما تقدمت على كعبها السليم . تأرجحت ساقها الجريحة لا تجرؤ ان تدوس بهـا على صفحة الرمل . حملها كوانج على ساعديه متعزيا عن غضبه بوطأة الشمس وخطواته النشيطة ، ودمائه الخافقة . قال العم شون :

ـ لعله جرح بسيط يا سيدتي ..

وقالت كوشان :

ـ عما قريب سنصمد الجرح في القيادة ..

امتزج الاشفاق بالغضب في عيني كوانج ، وآغمضت آلام عينيهـــا فبدت في وسامة الشباب كأنها في سبات او في آغماء . والحرج يلتف حول كوانج كالحصار المباغت فلم يدر ماذا يقول ! الحادثة اسكتتـــــه سكوتا أعمق من سكوت الصحراء المترامية بلا نهاية يبلغهـــا البصر ، الا هذا الافق البعيد المختلط الالوان . وهذا الجبل الذي يشعر بثقله كأنه غيظ مكبوت و اثر جامد لا تهزه النكبات . وكوشان والعم شـون صارا آثرين هزيلين في وعيه المحزون . كوشان تلمس ذراعه لمســـة مرتعشة تريد ان تخفف عنه قسوة الحادث ، وترنو اليه بعينيهـــا الجميلتين السوداوين . كم هو محتاج الى انسام لطيفة ورفقة عذبة وحنان يتسلق جدران نضاله الغاضب ، لكن هيهات ! في لحظة تحـولت كوشان في عينيه الى صورة باهتة عائقة بضميره كأنها زخارف الاطار المحيط بالصورة وكأنها تهاويم وتهاويل يراها النائم نصف يقظـــان . فيرى حبه وآحلامه خيالات مضطربة ، وهزات صاخبة .

والعم شون نقطة بين ملايين النقط يتبينها ويمر بها كأنها لا تعني شيئا ذا بال . وفي اللحظات التالية قفزت دماء آمه الى أعمـــاقه المرتعبة .. هتف في نفسه مع خطواته الدائبة وقامته المشدودة :

ـ سأحارب ذئاب الجبل والصحراء . ترى ماذا وراءك ايهـــا الافق ؟ أود آن أهتك ستارك وأرفع عنك غلالتك الزرقاء الباهتة . ومـا يصـــــير القلق هباء الا بهذين الساعدين بين زمجرة الابطـــــال وعواء الذئاب .

وكانت القيادة تلوح من بعيد .

القاهرة

عبد العزيز مصطفى

صدر حديثا :

دراسات
في الأدب الجزائري الحديث

تأليف

الدكتور أبو القاسم سعد الله

الثمن ٢٥٠ ق. ل

منشورات دار الاداب